قراءة القرآن بين التفسير والتأويل بالعربية

The Reading of Holy Qur'an in arabic between exegesis and interpretation

د. عمار قرفي *

جامعة باجي مختار-عنابة (الجزائر)

Guerfiamar02@gmail.com

تاريخ الارسال:2024-03-04	تاريخ التقييم:2024-06-09	تاريخ القبول:2024-07-06

الملخص

القرآن باعتباره آخر حلقة في سلسة الوحي، يجب أن يكون خطابا مفتوحا على مختلف مستويات الناس الإدراكية والمعرفية، حتى يفهموه فهما يتناسب مع وعيهم ومستواهم الإدراكي والذهني، فينال كل واحد منهم حظه من العلم والفهم والاعتقاد والعمل. وتعد القراءة مدخلا ضروريا لفهم الوحي والتفاعل معه حين الانصهار في الحياة.

والوحي معدّ للقراءة والفهم والإدراك، ووجب على الإنسان أن يسعى دائما للاقتراب منه لتصحيح وضعه المغلوط، واتخاذه مقياسا للصحة في الأعمال والأحكام والسلوك. ولأجل تدبر معانيه واكتشاف مراميه وغاياته، حتى يتم الائتلاف بين معاني الوحي وحياة الإنسان، بدت أهمية القراءة وأهمية الإسهام في بناء الفهم والوعي بأفكار الوحي لنقلها من أفقها الأعلى إلى ميدان التطبيق الفعلي في واقع الإنسان. فهل قرئ القرآن قراءة فعلية تفضي به إلى الفهم الحقيقي المراد من المخاطبين جميعا بهذا القرآن على اختلاف مستوياتهم، وتباعد أزمانهم؟

كلمات مفتاحية:القراءة؛ النص القرآني؛ تحديد المعنى؛التأويل.

Abstract:

The Quran, as the last link in the chain of revelation, must be a discourse open to the different perceptual and cognitive levels of people, so that they understand it in a way that suits their consciousness and their perceptual and mental level, so that

*- المؤلف المراسل: عمار قرفي

each one of them obtains his share of knowledge, understanding, belief and action. Reading is a necessary introduction to understanding revelation and interacting with it as it integrates into life.

Revelation is intended for reading, understanding and cognition, and everyone must always strive to approach it in order to correct their erroneous position and take it as a measure of correctness in their actions, their judgments. and his behavior. In order to contemplate its meanings and discover its aims and objectives, so that the meanings of revelation and human life can be reconciled, the importance of reading and the importance of helping to build understanding and awareness of ideas of revelation in order to move them, from their highest horizon to the real field of application in human reality have become evident. Has the Quran really been read, leading to the true understanding desired by all those to whom this Quran is addressed, whatever their level and the distance of their time?

Keywords: reading; Quranic text; Define meaning; exegesis; interpretation.

1. المقدمة:

إن رسالة الأنبياء والرسل تتضمن حمولات كثيفة من القيم والفضائل والمثل العليا، التي ترتف فوق كل تأطير مذهبي، مبني على خطة أعدت لتعبر عن رؤية أصحاب المذهب، وتظهر حدود قراءتهم التفسيرية والتأويلية، كما حدث في التاريخ لرسالة الأنبياء جميعا، إذ جاءت الأجيال بعدهم وهي تحمل روافد ثقافية فيها من الاشتراك والتفاهم بقدر ما فيها من الاختلاف والتعارف فتكون عندئذ طوائف محددة تجمع بينها نقاط مشتركة وتفاهمات، مشكلة مذاهب تفسيرية دورها أنها تشرح الرسالة الإلهية التي جاء بها الأنبياء والرسل، كل حسب المعايير والمقاييس، والأدوات التي يمتلكها.

فالمذاهب الإلهية هي التي تنشأ في كل دين هي في الحقيقة مشاريع إما سياسة وإما اجتماعية وإما دينية بحتة، تحمل قراءات متنوعة للمجتمع مستمدة من مستوى معين من مستويات نص الرسالة الإلهية، إما المستوى اللغوي، وإما مستوى فهم الأوائل لها، وإما مستوى الشراع السابقين على اختلاف رؤاهم وقراءاتهم، واما مستوى التأثير الثقافي والمعرفي الداخلي أو الخارجي في كل مرحلة من مراحل الحضارة.

هذا ما حدث للرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خضعت لكل هذه القراءات المستنبطة من الدوافع المختلفة، والذين تصدوا لشرح هذه الرسالة (القرآن) رأوا في أنفسهم مؤهلات ذهنية ونفسية وعلمية ما يؤهلهم لشرح نصوص هذه الرسالة، وفي اغلب الأحيان يقدمون شروحات غير وافية، وهو ما يبرر ظهور قراءات أخرى مكملة تضيف أفكارا جديدة أو تقدم تعليمات الرسالة بأسلوب أوفى وأوسع، وهكذا تستمر القراءات في فضاء تصاعدي إلى ما لا نهاية، لأن قراءة نص ديني كالقرآن لا تنتهي عند زمن معين، كما أنه ليس هناك قراءة نموذجية ينتهي عندها فعل القراءة، وكل هذه القراءات في التاريخ الإسلامي تندرج تحت ما يسمى بالاجتهاد.

2. دوافع تعدد القراءة بين المذاهب:

كل أصحاب مذهب ينبرون في جدلهم ودفاعهم عن آرائهم، أو هجومهم على خصومهم لدحض آرائهم وأفكارهم من أسئلة الحضارة وما تطرحه على العقل من احتمالات كانت منغلقة من قبل على الأوائل الذين استبقوا الرسالة، تجعل هؤلاء الشراع

من أصحاب المذاهب يفترضون أفكارا لم تخطر على بال السابقين، ويقيمون إجابات لم يكن الأوائل يفكرون فيها ويتصورون صنفا جديدة فيها من التحرر والانفتاح ما كان مفقودا.

إن حياتنا لا تعاني من انعدم قراءة النص القرآني أو من قلتها، بل تعاني من طبيعة هذه القراءة، التي أهدرت في كثير من الأحيان طبيعته الكونية، ونظرته إلى الإنسان، وإلى الوجود. فمثل هذه القراءة هي قراءة متحجرة حصرت فهم القرآن في حقبة تاريخية قديمة، اتخذت أنموذجا يحتذى في كل الأحقاب التاريخية التي جاءت بعدها، والنتيجة أن هذا النقل الحرفي الذي غيّب القراءة الواعية أدى إلى هدم الأسس الاجتماعية والدينية في حياتنا المعاصرة.

فما هي آليات القراءة الفاعلة التي تستنطق النص القرآني، وتقدم لنا فهما جديدا يتماشى مع عصرنا الحديث؟ ذلك هو السؤال الذي بنينا عليه الإشكالية: هل نحن قرأنا القرآن؟ هل تدبرناه وفهمناه؟ أم تلوناه مجرد تلاوة فقط؟ في مقالنا هذا إجابة عن هذا التساؤل نتوخى منها توضيح هذه الرؤية، متتبعين الخطوات التالية:

2. مفهوم القراءة:

"القراءة هي فعل التعرف على الحروف وتركيبها لفهم العلاقة الرابطة بين المكتوب والمقول"[1]. وهي أيضا "إذاعة نص مكتوب بصوت مرتفع، والانتقال من شفرة المكتوب إلى شفرة المقول يفترض معرفة القوانين المتحكمة في عملية الانتقال هذه. وهي فعل التتبع البصري لما هو مكتوب للتعرف على محتوياته ومضامينه"[2].

ومن العبارة الأخيرة، نستخلص أن فعل القراءة غير منتهٍ، لأن القارئ غير واحد، فتعدد القراء يعني تعدد تقنيات تحليل النص المقروء. وبالتالي، فإن النتيجة تعدد المفهوم، أو اتساعه، أو اختلافه، بحسب طبيعة القراء، وطبيعة آليات القراءة التي يمتلكها كل واحد منهم. فكل قراءة هي إنتاج جديد للنص حسب إدراك القارئ وفهمه له. وبتعدد القراء تتعدد القراءات الإنتاجية التي تؤسس مفهومات جديدة للنصوص. وهكذا، تبقى النصوص مفتوحة باستمرار على قراءات أخرى معتمدة على تقنيات أخرى في التحليل والممارسة والإجراء.

والقراءة بهذا المعنى هي اتصال مزدوج بين مؤلف النص وبين القارئ، والنص بينهما يؤسس حوارا ينتج باستمرار عملية التواصل الفهمية المشتركة لبناء فكرة وصياغة مفهوم بالعملية التحاورية. فالقراءة الفعلية هي المنتجة التي لا تجري باتجاه أحادي من النص إلى القارئ، وإنما تجري في اتجاهين متبادلين، من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص، وهذه ي القراءة الفعالة المنتجة، التي يمسيها إيزر (Izer) القراءة الفينومينولوجية [3]. وهي قراءة تهدف إلى إدراك الدلالات التي يحتويها النص داخل العلامات اللغوية المصممة تصميما مبنيا على العلاقات النحوية والصرفية بين الكلمات، ومبنيا أيضا على علاقة التراكيب بالجمل، وهي علاقات تكون متوازنة ومنضبطة.

وقد سمحت هذه القراءة بظهور العديد من المصطلحات التي توحي بعدد المفهوم القرائي، فيقال مثلا: القراءة التاريخية، والقراءة البنيوية، والقراءة السيميائية، والقراءة النقدية، والقراءة اللسانية، والقراءة التداولية... الخ. ومع ما في هذه المفاهيم من اختلافات، إلا أنها تظل نوعا من أنواع القراءة، وتفرعا للأساس الذي قام عليه منظور فعل القراءة.

ومن هنا نستنتج، مع حسين الواد، أن القراءة ليست فعلا بسيطا، يكتفي بمجرد مرور البصر على السطور، وليست أيضا بالتقبّلية التي يكتفى فيها بتلقي الخطاب تلقيا تسيليما من غير عمل تحليلي يرده إلى كتلة مفهوماتية متصلة بالواقع. فالقراءة فعل خلاق يقرب الرمز من الرمز، ويضم العلامة إلى العلامة، والقراءة هي سير في دروب ملتوية جدا في مساحة الدلالات، نصادقها حينا، وتختلقها حينا، ونتوهمها حينا، فنختلقها اختلاقا [4].

إن النص بهذا المفهوم لا ينكشف إلا من هذه العملية الحوارية التي تهدف إلى إبانة المعنى الذي تتضمنه العلامات اللغوية، وعندئذ ينفلت المعنى من قيود النص التي صممها الكاتب، وينتقل إلى ملكية القارئ، فينتجه إنتاجا ثانيا، يتقارب مع فكرة الكاتب في النص، أو يتباعد عنه بقدر مسافة الاختلاف بينهما.

هذه هي القراءة مفهومها الحديث، إنها سعي إلى إخراج معاني النص من حيز الفكرة المتخيلة في ذهن الكاتب إلى الوعي العام الذي يسهم في توجيه الواقع وبنائه، وتشييد

المستقبل عن طريق صياغة العديد من المفاهيم، وإشاعتها في الناس، للإشباع عقولهم بالأفكار، وإملاء قلوبهم بالقناعات.

فالنصوص في الحقيقة ليست كما نراها نحن سهلة بسيطة ندرك كنهها بيسر، بل هي عبارة عن مساحات فارغة، أو نسيج من الفضاءات الفارعة التي تتطلب باستمرار من يملأها، كما يرى بارت [5].

وتلك الفضاءات الفارغة هي مغارات لغوية، لا تدرك أسرارها بمجرد القراءة الأولى، التي تركز غالبا على العلاقات التي تربط بين أجزاء النص وعناصره من ناحية الروابط اللغوية من غير تدخل الآليات الأخرى. فهذه الآيات إذا طبقت على النص انتقل النص من الكاتب إلى القارئ وصار القارئ ينظر إليه من زوايا مختلفة، كالسياق والبحث عن مفاصد الكاتب، والأنساق الفكرية والنمط الثقافي الذي يحدد اتجاه القارئ. فكل هذه العوامل تشكل خلفية تدفع القارئ ليحدد موقفه من النص. ولذلك، فإن تشكيل المعنى ليس متاحا لكل قارئ، لأن هناك جدلا منقاشا يجب أن يقوما في ذهن القارئ من أجل البحث عن مقاصد النص الحقيقية، ثم تحديد معناه بإدراك هذه المقاصد، وهذه هي القراءة الفاعلية التي تشارك في إنتاج دلالات إضافية للنص، ومن ثم إنشاء وعي يتسع لمستويات عديدة من الناس.

هذا النوع من القراءة أطلقنا عليه القراءة المنتجة أو الفعالة، وهي التي يحدد فيها القارئ المعنى، وليس الكاتب، ولا شك في أن هذه العملية لا تخلو من فعل تأويلي تتدخل فيه عوامل خارجة عن حدود النص، يستخدمها القارئ لينتج منها مفهوما آخر، قد يكون مطابقا لإرادة الكاتب، أو لإرادة القارئ، أو قد يكون مقصودا من كليهما. ومن هنا، تبدأ أهمية النشاط التأويلي في كل قراءة ليكون الفهم المتوصل مشتركا، والمراد المقصود هو غاية الطرفين (الكاتب والقارئ). فهل كل عمل يعدّ ناجحا؟

3. دور العمل التأويلي في تفعيل القراءة:

يتمثل العمل التأويلي في النصوص في إقامة حوار جدلي بين القارئ وبين النص المبني على علامات لغوية تكون مغلقة قبل القراءة، ولكنها تصبح مفتوحة كلما قرئت، ودور القارئ هنا هو البوح بأسرار النص، والكشف عن معانيه الخفية التي تختبئ وراء هذه العلامات، فالنص هنا كخلية تنشط داخلها القراءة وتمنحها المعنى الأقرب إلى روح النص

من خلال تركيبته اللغوية والأدبية. ويعدّ القارئ هنا، انطلاقا من حريته الإبداعية، المنتج الثاني للنص، لأنه لا يكتفي بالنظر إلى ظاهر النص، وبنيته الأفقية، بل يتمدد مع كوامنه الباطنية لفك أسراره، وإعادة بنائه وتأسيسه، بتجاوز القراءة الأولية التي تقف عند ظاهر اللفظ، وحاضر المعنى، وباستدعاء المعاني الخفية، والعناصر الغائبة في ثنايا النص، وتقريبها من أفق القارئ وإدراكه لإحداث المقاربة بين أفق القارئ وفضاءات النص الواسعة.

والقارئ لا يمكنه أن يؤدي هذا العمل الخلاق والمنتج إلا إذا كان متمتعا بجهد لا يملّ من مساءلة النص، والذهاب معه إلى أبعد الحدود، أي البحث عن الثغرات والفراغات داخل النص بطرح الأسئلة وإثارة الجدل، ثم إيجاد الإجابات المحتملة التي تملأ المساحات والفضاءات الفارغة.

إن أهمية القراءة التأويلية للنصوص تكمن في مقدرتها على تحويل هذه النصوص من كوها تعبيرا عن واقع ينتمي إلى عالم المؤلف وثقافته وبيئته، إلى عالم جديد يفهم بحسب الزاوية التي ينظر منها إليه، وفي حالة كهذه ينبغي انتهاك القوانين المعتادة، وتأسيس قوانين جديدة يراعى فيها الحفاظ على المفهوم الأول للمعنى عندما يتبادر إلى الذهن في أول وهلة. إن تمييع المعنى وتشتيته يجعله خاضعا لمشاعر القارئ وأهوائه وتخيلاته. ومن ثم يتحول النص إلى لعبة سفسطائية خالية من المقصدية التي ألفت من أجلها النصوص.

ومن أجل هذا ينبغي البحث عن المعنى المقصود الذي هو غاية لكل تواصل شفاهي أو كتابي، كما ينبغي الابتعاد عن الدوافع الذاتية التي تميع النصوص، وتمنح القارئ فرصا كثيرة لتوجيه معاني النص حسب غرضه وذاتيته، ودوافعه المفرطة. كما ينبغي الالتزام بالأطر والمعطيات التي يقدمها النص نفسه، كالأطر اللغوية، والسياقات، والمكونات الثقافية لدى المؤلف، ومرجعياته الدينية والاجتماعية والسياسية، وما إلى ذلك...

إن النص، بحسب هذه القراءة التأويلية، لا يجيب بالمعنى الحرفي للكلمة، وإنما فقط يستفز القارئ باستخدامه الشفرات اللغوية، ويحرضه ليوظف جميع إمكانياته وآلياته، لاستخراج كل المعاني المشكلة للنص، وتوضيح جميع دلالاته.

إن العملية التأويلية في القراءة تتجاوز الدور الآلي للقارئ في تلقيه النص، فالقارئ هنا حسب هذا الطرح ليس متلقيا فحسب، أو مستهلكا، بل محاور ومشارك في إنتاج المعنى،

والقارئ المحاور والمشارك يرفض على الدوام أن تجري القراءة في اتجاه واحد من النص إلى القارئ أو العكس. ففي هذه القراءة تلتقي فكرتان وثقافتان ونصان هما نص القارئ والنص المقروء، "فأنا القارئ التي تنخرط في بناء النص هي كذلك نص دائما" [6]. ويتولد من القراءة الفعالة مسار تبادلي الاتجاه بين النص والقارئ، الذي "يستطيع أن يضفي على ما يقرآ معانٍ يرى وجودها في النص، باعتماد الخطوط التي ترسمها له شفرة النص التأويلية" [7].

ومن هنا، نكون قد توصلنا إلى نص منتج آخر غير الأصلي، بل هو النص المقروء، وبالتأكيد ليس النص المقروء، وهو ما يقوله النص المنتج الأول (الأصلي)، بل نحن أمام نص بالكيفية التي قرئ بها.

4. تفعيل القراءة وإنتاج المعنى:

نستنتج أن القراءة التأويلية هي عملية تحويل النص من تخيلات المؤلف وتصوراته إلى تخيلات وتصورات إضافية، يكتشفها القارئ من ثنايا النص، أو يفترضها بإدراكه لأبعاد النص، أو يفرضها هو على النص بفهمه لسياقات النص وبيئته وظروف تكونه ونشأته. وبالتالي، فإن مثل هذه القراءة الواعية والمستبصرة هي عبارة عن عملية تسلّق على الدوام، بحثا عن القمم العالية، لرؤية ما خلفها من أماكن ومشاهد لا ترى إلا بعد الصعود. كذلك، فإن للمعنى مساحات أخرى، وأماكن لا يمكن أن ترى إلا بالوصول إلى الهرم أو الذروة القصوى، حتى يمكن مشاهدة ما وراءها من الدقائق والأسرار.

وعملية التسلق هذه تبدأ من سلّم اللغة، فتتماثل مع بنية اللغة التركيبية والنحوية، وتتعاطى مع خصائصها البلاغية والبيانية، ثم الانتقال إلى حدود اكتشاف المعنى المتعدد، وهي الأوجه التي تسوقنا إليها زئبقية الكلمات والألفاظ داخل النص، وحلزونية البلاغة والتراكيب النحوية، ثم تفسير النص أو تأويله لتحديد المعنى المتوصل إليه بعد استخدام الوسائل وتطبيقها على النص.

إن قراءة النصوص بهذه الطريقة التي فيها التسلق والارتقاء التدريجي حتى الوصول إلى القمم العالية، هي التي تجعل النصوص مستوعبة ومحاطا بها، وتجعلها حاضرة في زمانها، وفي غير زمانها. ولقد تعرض النص القرآني في تاريخه إلى مثل هذه القراءات، وهو ما جعله حاضرا في كل الأزمان، مهيمنا على كل الحضارات، مستجيبا لكل قضايا المسلمين ومشاكل حياتهم.

وما ينبغي التأكيد عليه أن النص يبقى في إطاره النظري حتى يقرأن فغذا قرئ قراءة دينامية متحركة تحقق الهدف، وهو تحديد هوية النص لينتقل فيما بعد إلى الواقع ويكون موجودا فيه، أو على الأقل يكون موجودا في ذهن القارئ في مرحلة أولى. وعندما ينصهر معه القارئ، ويدخل عالمه ويقتنع به، ويمنحه وجوده الفعلي، وهنا ستشهد الساحة الثقافية والمعرفية ميلاد نص جديد له دلالاته ومضامينه، وخصوصيته الإبداعية.

فالقراءة إذن ليست فعلا جامدا، بل هي فعل متحرك، إما أن يقوم بتأسيس أفكار جديدة، وإما أن يقوم بتغيير صياغات فكرية وممارسات قديمة، وإما أن يكوم بهدم عالم من الأفكار السابقة القائمة على أسس وعادات مكتسبة وفق روافد مختلفة عبر التاريخ، ذلك أن كل قراءة ستنتج رؤية جديدة.

والسؤال الذي يطرح هنا: هل هذه الرؤية الجديدة هي التي يكونها النص نفسه؟ أم هي التي يكونها القارئ بعد تقصيه حقيقة النص، وبعد فهمه له؟

بل هناك نص آخر قد يظهر للوجود، إذا مارس القارئ جهدا نقديا أو تأويليا مثلا. وبمساءلته للنص ومناقشاته، سيبدع هو أيضا نصا يقترب أو يبتعد عن النص بحسب ثقافة كل من المؤلف والقارئ.

وبإمكاننا أن نستنتج أنه يمكن أن تتولد نصوص جديدة، بعدد القراءات الحية والفاعلة، من خلال تناص الأفكار، ومن خلال الأثر الذي تتركه القراءة في نفس القارئ، ومن خلال ما يضيفه القارئ نفسه من انطباعاته وانتقاداته للنص المقروء وبالتالي، ستتشكل نصوص أخرى لا نهاية لها، لأن المعاني ستتكاثف، والأفكار ستتنامى، وعملية القراءة لا تنتهي بتشكيل فكرة ومعنى بشكل تلقائي

وهذا ما أقره شكري عياد، حين قال: " إن عملية القراءة لا تنتهي بتشكيل فكرة ومعنى عند قراءة النص، بل إن مفاهيم ومعانٍ قلما تتضح إلا في عملية الاجترار التي تتلو عملية القراءة، وقد تأتي متراخية، بعدها في الزمن شيئا ما" [8].

وما دامت القراءة ملية ذهنية، فهي تتعلق أساسا بعملية الفهم، ولذلك فإن دورة القراءة لا تكتمل إلا إذا استفرغ الذهن كامل قواه في الإحاطة بكل حدود الفهم الممكنة، والمتاحة، وبالتالي ليست القراءة فعلا بسيطا، بل هي فعل معقد، لأن القارئ هنا يقوم

بعملية تفكيك للشفرات التي تكوّن النص، ثم إعادة تركيبها في ذهنه، بعملية إدراكية يقوم بها القارئ، وهي عملية تخضع لمكونات القارئ وخبرته، والتي تجعله يعطي تصورا جديدا يعدّ بمثابة إنتاج جديد للنص، يحمل لنا تفسيراته، وتأويلاته، وفهمه. ولهذا، فنحن نعدّ كل تفسير أو تأويل هو فهم القارئ وليس فهم المؤلف.

5. القراءة ومقاربة النص القرآني:

أنزل القرآن الكريم لكي يقرأ، ولقد أدرك المسلم منذ ظهور النص القرآني أنه مخاطب به، وقد لزمه فهمه وإدراكه، والتعايش معه وتطبيقه. ولقد وعى الإنسان المسلم أن أول ما نادى به القرآن الضمير المسلم، هو أن يتهيأ للقراءة، لأنه سيواجه كتابا سيكون بمثابة مرجعيته الفكرية والعلمية، وسيكون أيضا مصدر ثقافته ووعيه. ولذلك كان أول نداء قرآني "اقرأ" من أجل لفت النظر إلى قيمة هذا الكتاب، وما يحمله للبشرية من أفكار وتصورات وتشريع فيها كل الخير والنفع والكمال والجمال.

وجاءت آيات القراءة والتدبر والتمعن في القرآن الكريم على وجه الإطلاق، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : 24]، مما يوحي بأن قراءة القرآن غير منتهية، وفهمه لا محدود.

وبذلك يمكننا أن نقول مع محمد جهلان "إن العلماء الذين وضعوا أسس تفسير القرآن الكريم قد أدركوا وفق تصورهم وأفقهم المعرفي أن النص القرآني إنما أنزل ليقرأ، وفق الشروط التي يمليها، ولم يعدّوا في وقت من الأوقات إمكانية وجود قراءة مثالية منتهية لقارئ مثالي للنص القرآني، ولم ترد في القرآن آية توحي بإمكانية حدوث قراءة منتهية وفهم تام، بل نجد سعي العلماء منصبا على تطوير ملكات القراء ابتداء من المفسرين أنفسهم، ومع تأثير ذخيرة المعايير الاجتماعية والتاريخية في صياغة مبادئ الفهم والقراءة القرآنية، وتأثر الكثير من العلماء بالمذاهب والآراء، إلا أنها ساهمت - كل بحسب توجهه - في وضع إجراءات ميدانية تمكن القارئ الفعلي المتخصص من تشييد معنى النص وفهمه" [9].

ويواصل محمد جهلان قائلا: "لقد كان أغلب الشراح الكبار أمام النص القرآني، وأمام غيره من النصوص يؤمنون بأن العمل يفهم على أساس قابلية المشاركة فيه من قارئ معاصر، يعيش مستجدات عصره، لا يؤمن بالانغلاق الزمني. على أن النص القرآني ذاته وبطبيعته اللغوية الخاصة، لا يترك المجال لمن يفصل بين لغة قديمة أو حديثة، وبين ماضٍ

وحاضر (...) إن النص القرآني يقف جانب كل قراءة جادة لا تقتحم النص أو (تفجره) بحسب تعبير أتباع المدرسة التفكيكية، بقدر ما تحاوره، وتبني المعنى المتجدد مع احترام الشروط التي يمليها" [10].

إن النص لا يفعل وحده، بل تتحقق فعاليته بالإنسان الذي كان النص له رسالة وبلاغًا، حسب تعبير نصر حامد أبو زيد [11]. وعليه، فإن إخراج القارئ من دائرة المشاركة في إنشاء المعنى، وتأسيس المعرفة القرآنية هو إقصاء لمتلقي النص، أو تجاهله، بل هو إهدار النص في حد ذاته، باعتباره خطابا إلهيا موجها إلى الخلق كافة ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء : 106].

فكون القرآن الكريم خطابا للنص كافة، فقد جاء مبنيا على شفرات تراعى فيها كل الطبقات والمستويات الإدراكية والذهنية، حتى يحصل الفهم لدى الجميع. وعلى هذا، فإن فهم النص القرآني لا يظهر بشكل واحد، وإنما يظهر بكيفيات مختلفة، ويؤثر في عملية الفهم هذه عناصر عديدة، منها عنصر الثقافة، أو المذهب الذي ينتمي إليه القارئ، والظروف التي يفسر فيها النص، والبيئة التي يعيش فيها القارئ، وكذلك العصر الذي ينتسب إليه.

هذه الخلفيات تدفع القارئ لتشكيل رؤية حول النص، تختلف في مضمونها عن قارئ آخر له منطلقات فكرية مغايرة، ولذلك فنحن أمام فهم متعدد، وأحيانا يكون مختلفا اختلافا بيّنا، سواء بين العصور، أم بين فئات ومجموعات في العصر الواحد.

6. قراءة النص القرآني بين التفسير والتأويل:

التفسير والتأويل مصطلحان مشهوران في الدراسات الإسلامية وفي علوم القرآن، وهما شائعان كثيرا في الثقافة الإسلامية، وهذان المصطلحات نشآ في ظل محاولة المسلمين في مختلف العصور لفهم القرآن، وكشف معانيه، واستخراج مضامينه، لمعرفة مقاصده وغاياته، وشرح أحكامه وشرائعه ليعيشها المسلمون في حياتهم.

ورغم أهمية هذين المصطلحين في الثقافة الإسلامية، إلا أن ورودهما في القرآن ليس بالشكل البارز الذي تقتضيه أهمية هذه المصطلحات التي تمثل جانبا مهما في حيز انشغالات المسلمين بالقرآن الكريم.

فعلى سبيل المثال لم ترد كلمة (فسر) في القرآن الكريم سوى مرة واحدة بمعنى البيان والحجة، في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : 32-33]، أي جئناك بحجة أقوى مما عندهم، تدحض باطلهم وتكشف الحق وتبينه وتجعله ظاهرا.

أما كلمة تأويل باشتقاقاتها المختلفة، فقد وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة. ولعل هذا التباين بين الكلمتين في الاستعمال القرآني يعود إلى سبب واحد، وهو أن كلمة تأويل كان يراد منها التفسير في الفترة التي نزل فيها القرآن، وخاصة إذا علمنا أن تفسير الأحلام أو تأويل الأحاديث كان شائعا بكثرة قبل الإسلام.

فما معنى كلمة تفسير وكلمة تأويل؟

1.6.التفسير:

قال السيوطي: "التفسير تفعيل من الفَسْر، وهو البيان والكشف. تقول: أسفر الصبح إذا أضاء، وقيل مأخوذ من التفسرة، وهو اسم لما يعرف به الطبيب المرض" (12). وفي اللسان: التفسير مأخوذ من الفسر وهو البيان وكشف المغطّى، ونظر الطبيب إلى الماء (13). وبهذا يكون معنى التفسير: كشف الغوامض، وإظهار الحقيقة بواسطة الحجة والبرهان.

2.6.التأويل:

الأصل الاشتقاقي لكلمة تأويل هو من "(الأَوْل) بمعنى الرجوع. آل الشيء يؤول أوْلا ومآل، رجع. وأوّل إليه الشيء رجّعه، وأُلت عن الشيء ارتددت، وأوّل الكلام وتأوّله دبّر وقدّره، وأوّله وتأوّله فسّره" (14).

ومن التأويل: المؤل للموضع الذي يرجع إليه، وذلك هو ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علما كان أم فعلا، ففي العلم نحو قوله عز وجل ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]. ونحو الشاعر:

وَلِلأَحِبَّةِ أَيّامٌ تَذَكَّرُها　　　وِللنَوى قَبلَ يَومِ البَينِ تَأويلُ

وكذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف : 53]، أي بيانه الذي هو غايته (15). فالتأويل هو إذن الكشف عن الأسباب الحقيقية للأفعال، وهو بمنزلة الكشف عن الأصول (16).

3.6. التفسير والتأويل في الاصطلاح:

ما نستنتجه من التحليل اللغوي السابق أن التفسير يعتمد على وسيط يوصله إلى فهم معنى النص القرآني، كما يعتمد الطبيب على التفسرة، وهي وسيط يكتشف به المرض، وعلة المرض. أما التأويل فيعتدّ بحركة الذهن، فهو إذن نشاط عقلي يخضع لتمحيص شديد في اكتشاف أصل النص وحقيقته ومرجعه ومآله، فيخرجه من دائرة المعاني المتداخلة والمتشابهة والغامضة إلى دائرة المعنى البيّن والواضح والمطمأن إليه. ومن هنا، فالتفسير يهتم أكثر بالجانب الخارجي للنص، كالحديث، وأقوال الصحابة، أو ما أثر عن التابعين. أما التأويل فيركز على النص ذاته من الداخل، وعادة ما يرتبط بالاجتهاد، أي اجتهاد المؤول في صرف الآية إلى ما تحتمله وجوه المعاني.

فلقد قال الزركشي أن التفسير هو :" علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، تم ترتيب مكّيّها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وزاد فيها قوم، فقالوا علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها، وهذا الذي منع فيه القول بالرأي" [17]. فالتفسير حسب هذا المفهوم، قراءة النص القرآني من المكونات المتعلقة بالجوانب الخارجية للنص، وبإمكاننا أن نقرر أيضا أنه القراءة التي تركز على الظروف المحيطة الآية، كأسباب النزول، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والقصص ... الخ.

والملاحظ أن هذه المكونات التي تعتمد عليها قراءة المفسر تسمى في الثقافة الإسلامية بالعلوم النقلية، التي تعتمد على الرواية، ومعنى ذلك أن القارئ المفسر ينطلق من مرجعية تحدد مجالات الفهم. فالفهم لا يتأسس إلا ضمن هذه الضوابط، وهي قراءة أولية تمهد السبيل لظهور قراءات أخرى ستستثمر هذا العلم في تقليب وجوه الآية، لكشف المعاني التي تحتملها من بنيتها اللغوية وعلاقاتها الأخرى المرتبطة بالسياق والمرويات بشأنها، ثم صرفها بعد ذلك إلى المعنى الملائم الذي يتطابق مع مضمون الآية.

وهذا المستوى من القراءة هو الذي يسمى "التأويل"، وقد عرفه الزمخشري بقوله: "أما التأويل فأصله في اللغة من الأوْل، وأما قولهم: ما تأويل هذا الكلام؟ أي إلى ما تؤول العاقبة في المراد به، كما قال تعالى﴿ يَوْمَيَأْتِيتَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف : 53]، أي تكشف عاقبته،

ويقال: آل الأمر إلى كذا أي صار إليه، وأصله من المآل، وهو العاقبة والمصير. وقد أوّلته فآل أي صرفته فانصرف، فكأن التأويل صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني، وقيل أصله من الإيالة وهي السياسة، فكأن المؤوِّل للكلام يسوي الكلام، ويضع المعنى في موضعه" [18].

والتأويل عند الغزالي هو: "عبارة عن احتمال يعضده دليل يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة" [19].

والتأويل بهذا المعنى قراءة تقوم بعملية الاستنباط بصرف اللفظ والآية عن الظاهر، وهذه العملية في حد ذاتها مبدأ هام من مبادئ القراءة الفعالة المنتجة، وأساس عملي ثابت من أسس الفهم، وتؤكد لنا هذه العملية أهمية دور القارئ في محاورة النص والكشف عن دلالته المقصودة ومعناه الحقيقي عن طريق المساءلة واختيار الاحتمالات، والغوص في أعماق الدلالة، والتطلع إلى البواطن وإلى الدلالة الحقيقية للآية.

وهذا لا يعني أ القارئ المؤول يملك الحرية المطلقة في قراءته وتأويله، وبذلك "يتحول بالتأويل إلى أن يكون إخضاعا للنص لأهواء الذات، بل يلاحظ من تعريف الغزالي للتأويل أن هذا البحث والاستنباط صرف اللفظ عن دلالته الظاهرة إنما يقوم بالدليل القاطع الذي يعضد رأي المؤول ومذهبه، وما يساعده عليه من قوانين اللغة العربية، ومقررات الإسلام المقطوع بها، المعلومة من الدين على نحو ضروري، وبراهين العقل والمنطق" [20].

وعلى كل حال، فإن كل قراءة لأي نص من النصوص الدينية المقدسة أو الدبية لا بد أن تمر بمرحلتين، المرحلة الأولى هي لفت الانتباه إلى المعنى الحرفي أو المعجمي للنص، لأن أي تفسير لا يمكن أن يتأسس على الفراغ من دون أن يكون قد حصل في لدى القارئ معنى أولي ابتدائي يتجلى في ذهنه. هذه المرحلة من القراءة هي مرحلة تفسير النص، وهي قراءة تمهد لقراءة تخضع لحرية القارئ واختياراته، وهي المرحلة الثانية، التي تتطلق من الفهم الأول المبني على أساس أن النص لا غاية له، فلا بد من تحديد مقاصده حسب ما يفهمه القارئ مما تراكم لديه من معارف وخبرات بفعل قراءات سابقة، وهنا تتدخل شخصية القارئ في تشكيل فحوى النص وتأسيس الفهم المستنبط بعد عمليات تمحيص وتدقيق وتحليل واسعة، يبرز فيها القارئ مهاراته الذهنية، وقدراته التأويلية. وهذه المرحلة هي

مرحلة القراءات التأويلية، وهي قراءات متعددة تخضع كلها لاتجاهات القراء ومذاهبهم وآرائهم.

وهذا النوع من القراءة التأويلية لا تتأتى للقارئ إلا إذا تميز بتمحيص شديد وفكر نفاذ، فلا يقبل ما يسمعه إلا بدليل، ولا يردد ما شاع على الألسنة من دون مناقشة ونظر، بل عليه أن يعرض ما يسمعه للبحث، وأن يناقش ما شاع بعقل يقظ وفكر مستنير[21].

7.آليات القراءة التأويليةفي النص القرآني:

لا بد للقارئ المؤول من آليات يعتمد عليها وهو يحاول استكشاف معنى النص القرآني، ومقاربة مضمونه ومحتواه، وكان القراء والمؤولون للنص القرآني في التاريخ الإسلامي يرتكزون على مرجعيات يعتقدون صحتها صونا لأنفسهم من الانحراف، وتقوية لموقفهم أثناء الدفاع عن الرأي أو المذهب.

وقد عدّ علماؤنا القدامى من هذه الآليات أو المرجعيات من الشروط الضرورية لكل عمل تأويلي للنص القرآني. ومن تلك الآليات:

1.7.المعرفة بعلوم اللغة العربية:

وتعدّ آلية اللغة من أهم وسائل فهم القرآن وأدواته، باعتبار نزول القرآن الكريم بلغة العرب، ولذلك كانت اللغة من أهم ما يحرص عليه العلماء في مجال استعراض آليات المفسر والمؤول، فأكدوا على أهمية إتقان اللغة العربية، ومعرفة مقاصد العرب في كلامهم، وأدب لغتهم.

ذلك أن القرآن الكريم عربي اللغة، "فمن الطبيعي أن تكون قواعد اللغة العربية باختلاف كدارسها أهم السبل لفهم معانيه، وإدراك مقاصده، ومن دون ذلك لا يسلم المفسر بله القارئ من الوقوع في الغلط وسوء الفهم.

وإذا تعرضنا لقواعد العربية، فنحن لا نقصد علم النحو والصرف فحسب، بل يتعدى مفهوم القواعد إلى مجموع علوم اللسان العربي، من معرفة متن اللغة، باشتقاق مفرداتها وتراكيبها، والتصريف والنحو، والبيان، والمعاني، والمجاز، ثم استعمالات العرب المختلفة، وأساليبهم في الكتابة من الخطب والأشعار، وتراكيب البلغاء" [22]. أم الزركشي، فيقول في هذا المجال: "أول ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني المفردات من ألفاظ القرآن من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرك معانيه" [23].

وفي هذا الصدد، يذكر الزمخشري في الكشاف أهمية امتلاك علوم العربية لمن يريد أن يتصدى للتفسير، يقول: "علم التفسير الذي لا يتم تعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن كان علك اللغات

بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علما البيان والمعاني" [24]. أما الجرجاني، فيرى أن "من عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا أبدا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها، أي على الحقيقة، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض"[25].

2.7.المعرفة بعلوم القرآن المختلفة:

إن الفرق بي القارئ العادي للقرآن، والقارئ المثالي هو قدرة القارئ المثالي على الإلمام بهذه المعرفة العلمية التي ترفعه إلى مستوى القارئ المفسر، والشارح، والفاهم، لأنه امتلك ناصية الآليات التي تساعده على اكتشاف المعنى ودلالاته.

وجملة هذه العلوم اللغة التي يجب أن يتقنها القارئ المفسر هي العلوم النقلية، والتي تسمى بعلوم القرآن، وتتبعها كذلك علوم اللغة. ويحصر الإمام السيوطي هذه العلوم الضرورية فيما يلي:

* علم مواطن النزول وأوقاته ووقائعه، وقد صنفت اثني عشر نوعا، منها المكي والمدني، والحضري والسفري، والليلي والنهاري، وغيرها، ثم علم أسباب النزول بأقسامه، ثم السند في رواية الآية، وهو أنواع أيضا، المتواتر، والآحاد، والشاذ، ثم الأداء، وهو ستة أنواع، منها الوقف والابتداء والإمالة وغيرها، ثم دراسة الألفاظ في ذاتها، وهي سبعة أنواع، منها الغريب والمعرب، والمجاز والمشترك، والترادف والاستعارة والتشبيه. ومن علوم القرآن علم المعاني المتعلقة بالأحكام، وهو أربعة عشر نوعا، منها العام والخاص بأقسامهما، والمجمل والمبين، والمؤول والمفهوم، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ. وهو خمسة أنواع، هي الفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والقصر. وقد وصل بعضهم في تصنيف هذه العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم إلى خمسين صنفا، يقوم كل منها على أسس وضوابط تجعله علما قائما بذاته [26].

3.7.المعرفة بالعلوم الحديثة:

العلوم الحديثة، وخاصة منها العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ، وعلوم التربية، والفلسفة، كلها معارف تعين القارئ المتمكن منها على فهم أجود

وأدق للنص القرآني وتفسيره تفسيرا جديدا يتناسب مع المقروئيات الحديثة، ويحقق إعجازه المتجدد، بل إننا نرى أن الإلمام ببعض هذه العلوم في هذا العصر أمر لا غنى للمفسر عنه. بقول الزرقاني: "ومعلوم أن المفسر لا يفسر لنفسه، وإنما يفسر للناس، فكان من الواجب أن يساير أفكارهم، ويشرح ألفاظ القرآن في الظواهر الطبيعية والعلمية، وسنن الله الكونية، وقوانين الاجتماع والسياسة، وقواعد الاقتصاد، والأخلاق، وسائر التشريعات الشخصية والمدنية والجنائية والحربية" [27]. أما محمد جهلان، فيقول في هذا الصدد: "إن المفسر لكي يحقق هذه الغاية ينبغي له أن يساير أحداث العلوم ويطلع عليها، وأن يلم بواقعه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وينظر إليه من ميزان الشرع وبيان القرآن، فيشرح ألفاظ القرآن في ذلك كله بالطريقة العلمية المألوفة لمتلقيه، وبالأفكار الغالبة عليهم والملائمة لأذواقهم" [28].

ومن خلال المثال الذي سنسوقه، يتبين أهمية ما ذكرناه من الإلمام بالعلوم الحديثة، بالنسبة لقارئ مفسر للقرآن في العصر الحديث. ففي قوله تعالى﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: 22].

فسره القدماء بقولهم : ذكروا أن الرياح اللواقح هي رياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب في جوفها، كأنها لاقحة بها، أو بمعنى أن السحب تلقح الأرض بما تحمله من ماء المطر، ونتيجة لهذا التلقيح تهتز الأرض وتربو، وتنبت من كل زوج بهيج [29]. وهذا الفهم قد يكون صحيحا، ولكنه فهم بسيط يعبر عن ثقافة وبيئة العلماء الأوائل الذين فسروا القرآن الكريم.

أما اليوم، فلا شيء يمنعنا من تفسير الآية تفسيرا علميا وفق ثقافتنا العصرية، بأن الرياح تحمل مادة الإخصاب من أعضاء التأنيث في زهر النباتات، كما تحمل الحشرات التي تنقل بأطرافها مادة الإخصاب بين زهر النباتات فتلقحها، وهذا المعنى صحيح أيضا [30]. كما يواصل في سياق نفسه أحد العلماء بقوله: "فإذا كان الأسلوب البياني المعجز لآية الكريمة هو الذي يعطينا كلا المعنيين الصحيحين، فيعطي العربي الذي شهد نزول الوحي المعنى الملائم لثقافته وعصره، ويعطينا نحن المعنى الملائم لثقافتنا العلمية الحديثة، ويعطي لمن يأتي في المستقبل المعنى الذي يلائم ثقافته. إن هذا التعدد الدلالي ليس سمة موجودة سلفا في النص، وإلا كان العربي قديما عالما بالمعنيين والمعاني المحتملة، ولاكتشف الصحابة

والتابعون كل هذه المعاني الجديدة للنص، وإنما يعود التعدد والتجدد إلى اجتهاد المفسر واستغلاله لمعارفه العلمية في استكشاف المعاني الجديدة للنص، بما يوافق واقعه وفكره وتاريخه وحضارته"[31].

8.دور القارئ في تفعيل القراءة التفسيرية والتأويلية في النص القرآني:

إذا كان فهم النص ينطلق ابتداء بقراءة أولية، لاكتشاف ملامحه المعنوية، ثم يثنى بقراءة ثانية يعرف من خلالها مرتكزاته الدلالية انطلاقا من بنيته اللغوية، فإن النص يظل بعد ذلك قابلا لقراءة جديدة، بل لقراءات بحسب القراء وما يملكونه من تخصصات تجعل محاولاتهم التفسيرية متمايزة أو متباينة.

إن القراءة التفسيرية والتأويلية تفرض على القارئ نمطا خاصا من التعامل مع النص، نمطا يستدعي استغراقا حقيقيا في عالم النص.

إن من أهم الآليات التي تساعد القارئ المفسر على فهم القرآن الكريم وتأويله، أن يطور في نفسه موهبة الفهم والتدبر، والاستغراق في التأمل، وأن يطور في نفسه أيضا ملكة التحصيل العلمي، فيقرأ بقدر ما يستطيع من كمّ معرفي وعلمي يرتقي به إلى مستوى أعلى من التحليل والتعمق.

إن القراءة التي تنجز في أحضان هذه المعرفة العلمية، هي قراءة مبدعة لا تستسلم للقراءات السابقة للنص، وللآراء المتداولة بشأنه، وهي قراءة تنأى بالنص عن الجمود والتحجر، وتحرره من رؤية عصر معين، وجيل معين، بل وفرد معين. وهي قراءة تسعى إلى تحرير النص من سطوة الأسماء المشهورة التي سبق أن أعطت رأيا فيه، وتدعوه إلى فضاءات أرحب، فضاءات يستلهم القارئ أبعادها من تأملاته في الخلق وأسرار الوجود، واشتغاله بمستجدات الأحداث والوقائع. إنها باختصار قراءة تفتح بانتهائها أفقا جديدا للتفكير وأسئلة جديدة لم تطرح من قبل.

9.القراءة المقارنة وارتباطها بالتأويل والمجاز:

القراءة المقارنة لا تنطلق من مقولات سابقة، كما أنها لا تفترض نتائج معينة، بل هي الطريقة الحديثة التأويلية، ولا تهدف إلى تأصيل فهم معين، بقدر ما تقوم بوظيفة نقدية، باعتبار أن العملية التفسيرية أو التأويلية ليستا قطعيّتين، ولا يمكن إعادة النظر

فيهما والرد عليهما، بل هما تأليفان بشريان يقومان على قراءة ورؤية واجتهاد، ومحاولة فهم يبقى دائما قابلا للنقد والتوجيه والترشيد والتعديل. ولا يعني ذلك أن تكون القراءة النقدية متحررة تحررا كاملا من القيود والشروط التي ضبطها بها العلماء كل نشاط تأويلي يتعلق بكتاب الله، بل لا بد من أن تلتزم ببنية النص القرآني ودلالاته، وأنساقه وسياقاته ومجازاته، وكل ما يتعلق بعلومه التي ذكرناها سابقا. كل ذلك يجب مراعاته أثناء إجراء أي عمل تأويلي أو نقدي لتفسيرات وتأويلات سابقة.

ولعل صعوبة تطبيق هذا الإجراء على النص القرآني لاحظنا في تفسيراتنا السابقة والقديمة استبعادا لمعانٍ كثيرة وردت في القرآن الكريم تجاوزها العقل السني خاصة، وسكت عن إثارتها والتعمق فيها على أساس أنها مما يخفى على الإنسان إدراكها، وأنها مما يعلمه الله وحده، وأن الخوض فيها ومحاولة فهمها يدخله في دائرة الشبهات والريب، مثل كل الآيات التي وردت في القرآن وهي تحمل صفات التجسيم والتشبيه في صفات الله وأسمائه، وإن محاولة الاستبعاد هذه أدت ببعض المذاهب الإسلامية إلى استحسان هذه الفكرة، بل أدت بهذه المذاهب إلى تفضيل هذا النوع من التفسير الذي لا يثير مثل هذه القضايا الغيبية. واعتبروا أن التفسيرات الأخرى التي تنطلق من رؤى وسوابق فكرية، كلها خاطئة ومليئة بالأغلاط، لأن تلك الأفكار والمعرفة التي تعتبرها مقدمات في تفسيرها هي التي تضغط عليها في توجيه الآيات نحو غايات رسموها من قبل، وإنما استغلوا مجازات القرآن الكريم لإضفاء المشروعية عليها. ولذلك ألبسوها لبوس التأصيلية الشرعية، حتى صار التفسير عند هؤلاء هو تقديم الفكرة كمقدمة للتفسير، ثم البحث عن سند لها في القرآن يؤديها ويساندها عن طريق التأمل والتعمق في فهم مجازات القرآن الكريم.

ولما كان تفسير القرآن هو فهمه من غير خلفيات وسوابق معرفية، فلا بد إذن من البحث عن وسائل كفيلة بتقريب النص القرآني من مساحات الفكر والثقافة والوعي الجماهيري المكتسب من روافد الاتصال الحضاري بين الشعوب، وإحداث مقاربات بين النص القرآني والواقع الإنساني بما يحمله من تراكمات معرفية وثقافية وتنوع في المستويات العلمية والمعرفية.

إن رفض التأويل وتعدد القراءة، وتأسيس حركة نقدية تتعقب التفسيرات القديمة التي تعبر عن فهم عصرها، ومحتوى زمانها، والتضييق على هذه العملية الاجتهادية سيحدث

انكسارا خطيرا في فهم القرآن الكريم، ومن ثم فهم الإسلام، والقرآن نفسه أورد تقريرا شدد فيه على قابليته للفهم في كل زمان، وكل جيل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد : 24]، وقال كذلك جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[القمر: 17].

إن فرض قراءة واحدة للقرآن الكريم، واعتبارها القراءة المثالية، إنما هي قراءة أنتجتها ظروف تاريخية سابقة، نتيجتها انسدادات وضعت في مجاري الفهم، وما هي إلا قيود وآصار تحجب الأبصار عن رؤية حقائق القرآن.

10.الخاتمة:

إن تتبعنا لتفسيرات وتأويلات القرآن الكريم التي ظهرت على مرّ التاريخ، أو في هذا العصر يجعلنا نجزم بأنه نص مفتوح قابل لتعدد القراءة وتجدد الفهم عند كل قراءة أو قراءات في كل عصر حسب مستوى الإدراك عند البشر، وحسب توسع المعرفة وتطور العلم، حسب درجة الوعي ومستويات التحضر المرتبطة بالتاريخ.

إن هذا التنوع القرائي والتأويلي في تفسيرات القرآن الكريم عبر التاريخ سمحت به سعة الدلالة اللغوية التي جعلت جميع من يشتغل بفهم معاني القرآن الكريم يركز على ما توحي به رمزية اللفظة والعبارة والتركيب داخل النص، وهو ما يجعله قادرا على إنتاج مفاهيم عديدة بعدد القراءات الفاعلة والمبدعة والمنتجة، تجعل معاني القرآن موصولة بكل الحضارات، محيطة بكل جوانب حياة الإنسان ومستوعبة لكل مجالاتها واتجاهاتها وألوانها وصورها.

إن أهمية تعدد قراءة النص القرآني تكتسب سندها وقوتها من تعدد معاني الكلمة في النص القرآني نفسه، فنحن في عالم تعددت أشكاله، وتنوعت وتطورت، خاصة بعد تعقد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية، وهو الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن تعدد معاني الكلمة في القرآن الكريم الذي يوجب تعدد القراءة مرتبطا بعلم الله المسبق بتعقيد الحياة وتعدد أشكالها الذي يلزم ضرورة تعدد القراءة لتعدد الفهم، والذي يفي بحاجات هذه الحياة المعقدة.

11. قائمة المراجع:

1- أبو زيد نصر حامد (1994)، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط2 .

2- الأصفهاني الراغب (1972)، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت.

3- الجرجاني عبد القاهر (1981)، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، ط1.

4- جهلان، محمد بن أحمد (2008)، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، دمشق.

5- حمود محمد (1993)، تدريس الأدب، استراتيجية القراءة والإقراء، منشورات ديداكتيكا، المغرب.

6- السيوطي جلال الدين (2003)، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1، ج2.

7- شولز روبرت (1994)، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1.

8- الزرقاني محمد عبد العظيم (1996)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مكتب الدراسات والبحوث، دار الفكر، بيروت، ط1.

9- الزركشي بدر الدين (1988)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الجيل، بيروت.

10- الزمخشري (2009)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

11- الصباغ محمد لطفي (1988)، بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1.

12- الطبري محمد بن جرير (1434 ه)، جامع البيان في تفسير آي القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار عالم الكتب، الرياض،ج14.

13- عبد السلام نجوى وسحلول حسن (1997)، معضلة القارئ النظرية، مجلة المعرفة، عدد 402.

14-عبد العظيم علي (1973)، فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

15- الغزالي أبو حامد (1997)، المستصفى من علم الأصول، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1.
16- ابن كثير إسماعيل (2000)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق مصطفى محمد السيد وآخرون، مؤسسة قرطبة ومكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، ج2.
17- الواد، حسين (1984)، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة التونسية، تونس.

الهوامش والإحالات:

1- محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، صفحات للدراسات والنشر، 2008، ص46.
2- حمود محمد، تدريس الأدب، استراتيجية القراءة والإقراء، منشورات ديداكتيكا، المغرب، 1993، ص 13.
3- انظر فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في قراءة النص القرآني، ص 47.
4- حسين الواد، في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة التونسية، تونس، كانون الثاني 1984، ص 86.
5- انظر فاعلية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص 49.
6- نجوى عبد السلام وحسن سحلول، معضلة القارئ النظرية، مجلة المعرفة، عدد 402، آذار 1997، ص214- 236.
7- انظر روبرت شولز، السيمياء والتأويل، ترجمة سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1994، ص 32.
8- شكري محمد عياد، دائرة الإبداع، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص 59.
9- محمد بن أحمد جهلان، فاعلية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص 88.
10- المرجع نفسه، ص 88.
11- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط 2، 1994، ص 55.
12- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1 ، 2003، ج2 ص545.
13- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، مج 5 ص 55 مادة (فسر).
14- المرجع نفسه، مج 11 ص 32-33 مادة (أول).
15- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1972، ص 27 مادة (أول).
16- محمد بن أحمد جهلان، فاعلية القراءة، ص 202.

17- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الجيل، بيروت، 1988، ج2 ص148.
18- المرجع نفسه، ج2 ص 148-149.
19- أبو حامد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1997، ج2 ص 49.
20- محمد بن أحمد جهلان، فاعلية قراءة، ص 205.
21- ينظر محمد لطفي الصباغ، بحوث في أصول التفسير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1988، ص305.
22- محمد بن أحمد جهلان، فاعلية قراءة، ص 254.
23- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج2 ص 173.
24- الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2009، ج1 ص 15-16.
25- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1981، ص 236.
26- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1 ص 20.
27- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، مكتب الدراسات والبحوث، دار الفكر، بيروت، ط1، 1996، ج2 ص 71.
28- محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة، ص 260.
29- ينظر الطبري، جامع البيان، ج14 ص 19. وتفسير ابن كثير، ج2 ص 550.
30-ينظر علي عبد العظيم، فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت 1973، ص 12.
31- محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة، ص 262.